

صورة الأسطول والبحارة الجزائريين خلال العهد العثماني من خلال مصادر أجنبية
*The image of the Algerian fleet and sailors during the Ottoman era
 through foreign sources*

1- آمال معوشي جامعة محمد بوضياف المسيلة (الجزائر)

Amel.maouchi@univ-Msila.dz

تاريخ الاستلام: 2022 /10/13 تاريخ القبول: 2022 /11/08 تاريخ النشر: 2022 /12/31

الملخص:

شكل الصراع القائم بين الإسلام والمسيحية الذي طبع علاقة الجزائر خلال العهد العثماني بالدول الأوروبية، أحد أهم أسباب اهتمام وتركيز المصادر الغربية على النشاط البحري والأسطول الجزائري، في محاولة لتوحيد القوى الصليبية للقضاء على الأسطول الجزائري وهيمنته على البحر الأبيض المتوسط، فحملت هذه المصادر على اختلاف أنواعها مذكرات تقارير رحلات...الكثير من المعلومات التاريخية حول النشاط البحري الجزائري، ورسمت صورة خاصة للأسطول والبحارة الجزائريين، اعتمدت فيها على وجهة نظرها الخاصة، ومن هذا المنطلق نتساءل يا ترى كيف صورت المصادر الأجنبية نشاط الأسطول البحري الجزائري؟ وكيف نظرت للبحارة الجزائريين؟ ولماذا؟ إن الإجابة عن هذا التساؤل هو ما تحاول دراستنا تسليط الضوء عليه من خلال رصد صورة الأسطول الجزائري في بعض المصادر الأجنبية، مع مناقشة هذه الصورة التي غلبت عليها النظرة العنصرية والتعصب المسيحي، حيث وصف نشاط الأسطول والبحارة بأبشع الأوصاف، وكانت تحمل في طياتها نداء لا حتلال الجزائر.

كلمات مفتاحية: الجزائر، الأسطول الجزائري، البحارة، المصادر الأجنبية، القرصنة.

*- المؤلف المرسل

Abstract: The conflict between Islam and Christianity that characterized Algeria's relationship during the Ottoman era with European countries was one of the most important reasons for the interest and focus of Western sources on naval activity and the Algerian fleet, in an attempt to unite the Crusader forces to eliminate the Algerian fleet and its dominance over the Mediterranean Sea. Memoirs of trip reports ... a lot of historical information about the Algerian naval activity, and she painted a special picture of the Algerian fleet and sailors, in which she relied on her own point of view. How did they look at the Algerian sailors? And why? The answer to this question is what our study attempts to shed light on by monitoring the image of the Algerian fleet in some foreign sources, with a discussion of this image, which was dominated by the racist view and Christian fanaticism, where the activity of the fleet and sailors was described in the worst descriptions, and it carried with it a call for the occupation of Algeria .

Keywords: Algeria, the Algerian fleet, sailors, foreign sources, piracy.

● مقدمة

تنوعت المصادر الأجنبية في تاريخ الجزائر العثمانية فمنها مذكرات القناصل وكتابات الأسرى وكتب الرحالة ورجال الدين والرهبان وغيرها، وكان أصحابها من جنسيات مختلفة فمنهم الإسباني والفرنسي والألماني والأمريكي.. ممن قادتهم ظروفهم لزيارة الجزائر والتعرف عليها، واحتوت مصادرهم على معلومات كثيرة ومهمة، وأخبار وإحصاءات وأوصاف للحياة السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية للجزائر، حتى أصبح من الصعب الاستغناء عنها لأي باحث في تاريخ الجزائر العثمانية، وحظي الأسطول والبحارة الجزائريين باهتمام خاص في هذه المصادر، وهذا راجع لدور هذا الجهاز في تعزيز قوة الجزائر التي بلغت حينها درجة كبيرة، إذ بسطت نفوذها على حوض البحر الأبيض المتوسط، وفرضت قوانينها من ضرائب، وشروط الصلح، والتجارة، ومعاهدات لا تقبل النقاش أحيانا، والسؤال الذي نود طرحه هنا هو كيف كانت نظرة هذه المصادر للبحارة ونشاط الأسطول الجزائري؟ ولماذا؟ وماهي الدوافع الحقيقية وراء هذه النظرة؟ وقد حاولنا الإجابة على ذلك من خلال المرور بثلاث عناصر أساسية حيث عرضنا في العنصر الأول نظرة بعض المصادر

للمؤسسة البحرية الجزائرية ونشاط البحارة، ثم ناقشنا هذه النظرة، وفي الأخير تم استعراض الأسباب الحقيقية وراء تلك النظرة.

1- نظرة المصادر الأجنبية للبحارة والأسطول الجزائري:

كان النشاط البحري في الجزائر خلال العهد العثماني على قدر كبير من الأهمية، وبلغ الجزائريون في ممارسته قمة مجدهم وقوتهم، حتى أننا لا نبالغ إن قلنا أنهم كانوا من أعظم القوى البحرية حينها، ورغم أن النشاط البحري قديم ولم يكن وليد القرن 16 م. بل تعود جذوره إلى أبعد من ذلك إلا أن القرنين 16 و17م. خاصة عرفا ازدهارا لهذا النشاط، وارتبط الأمر بعوامل عديدة أهمها أنه كان إحدى أوجه الحرب ضد الدول المسيحية وتحرشاتها، خاصة بعد أن تحول الصراع الديني بين الإسلام والمسيحية من الحروب البرية إلى الحروب البحرية، ضمن إطار المبدأ الذي نص على أنه "من يملك يملك البحر"، ويأتي في طليعة الدول التي حملت لواء الحروب الصليبية وشعار الحرب الدينية المقدسة اسبانيا،¹ التي اشتكى من بطشها الجزائريون أكثر من أية دولة أجنبية أخرى حسب وصف حمدان بن عثمان خوجة، وكان تجهيز السفن ضدها مدفوعا بالرغبة في الانتقام، وكان لا بد أن يتسم بالعنف والضاوة،² وارتبط النشاط البحري أيضا بتطور سفن الملاحه وازدهار التجارة البحرية حتى شكل النشاط البحري أحد أبرز النشاطات الاقتصادية، وكان له قوانينه التي تحكمه وأعرافه ونظامه الدولي.³

ورأت الكتابات الغربية خاصة الفرنسية منها، أن البحرية الجزائرية بلغت أوجها في منتصف القرن 17م. ومكنتها قوتها من نفوذ بحري وسياسي إلى الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط من جهة، وأوروبا الغربية من جهة أخرى، وأبحر الأسطول الجزائري من الجزائر إلى بريطانيا وأيسلندا وجزر الكناري وغيرها،⁴ وبواسطته ظلت الجزائر تدافع عن نفسها طيلة ثلاث قرون ضد الدول الأوروبية، التي

¹ - محمد بن سعيدان، "الأسطول البحري ودوره في أيلة الجزائر خلال القرن 11 هـ 17م"، الحوار

المتوسطي، جامعة الجيلالي الياصب، سيدي بلعباس، مج. (8) ع. (2)، ديسمبر 2017، ص 81

² - حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، سلسلة التراث

منشورات ANEP، الجزائر، 2005، ص. 79

³ - محمد بن سعيدان، المقال السابق، ص. 81

⁴ - محمد بن جبور، "البحرية الجزائرية في أواخر العهد العثماني"، عصور، جامعة وهران، مج. (7) ع.

(2)، 2008-2009، ص 120

نظرت لها باستمرار على أنها مدينة الرعب وعش العفاريت، وبفضل رجال البحرية تمكن الحكام العثمانيون بالجزائر من فرض الشروط والقوانين على الدول الأوروبية وأساطيلها، وقد قوبلت حالات العصيان أو تجاوز القيود بتعرض أصحابها للأسر والحجز.¹

واللافت للنظر أن أغلب المصادر الأجنبية ورغم تنوعها واختلاف مؤلفيها وجنسياتهم، إلا أنهم اتفقوا على تشويه صورة البحارة ونشاط الأسطول الجزائري، باستثناء قلة قليلة تجنبت التعصب المبالغ فيه ضد كل ما هو جزائري وعثماني، وإنهال المؤلفون الغربيون بوابل من الشتائم ومشاعر الكراهية على البحارة الجزائريين والأسطول الجزائري، واستخدمت الكثير من الأوصاف الكريهة لوصفهم فقد صور رياس البحر على أنهم المتعطشون للدماء، ورعاع القوم، وحنالة الأتراك، وهم القراصنة الناهبون... وغيرها من الأوصاف القبيحة التي تشمئز منها النفوس وينفر منها الناس، وحتى العاصمة والحكام العثمانيون لم يسلموا من نظرة الحقد والعداء ولهجة التهديد والوعيد والشتائم، فالعاصمة في مؤلفاتهم حجر "للصوص" وعش الصعاليك وجحيم النصارى وجمهورية قطاع الطرق... وحكام البلاد "غيلان إفريقيا" أهل الاستبداد معدومو الأخلاق همهم الوحيد طلب اللذة والمال،² وأصبحت الجزائر ومؤسستها البحرية أو "القرصنة البربرية" كما توصف عندهم هي آفة العالم المسيحي، ومصدر رعبه وخوفه، ومن بين ما وصف به الأسطول والبحارة الجزائريين نذكر ما يلي:

1.1- القرصنة:

تكاد كل المصادر الأجنبية تتفق على استخدام كلمة القرصنة لوصف نشاط البحارة الجزائريين، والقرصنة هنا بمعناها السلبي الذي يعني النهب ولصوصية البحر، التي تدر الربح ولأموال (المسروقات) وطواير الأسرى، وعدم الالتزام بالوفاء والعهد، والخروج عن الأعراف والقوانين الدولية وعادات وتقاليد الحروب التي تحترمها الأمم المتحضرة، واعتبر الأسير الإسباني هايدو الذي أسر في الجزائر ما بين 1578-1581، أن القراصنة في الجزائر هم عموماً أولئك المتمكنون جداً من الملاحاة على سواحل الدول المسيحية، بعضهم أترك أو من الجزائريين الأصليين (الأهالي) لكن أكثرهم من

¹ - فاتح بلعمري، "حملة اللورد اكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816 في عيون رحالة محلي وقنصل

أجنبي"، مجلة معارف، جامعة آكلي محند أولحاج، البويرة، ع. (17)، ديسمبر 2014، ص. 21.

² - مولاي بلحميسي، "موقف الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني"، مجلة الدراسات التاريخية،

الذين أسلموا من مختلف الدول، طبعاً بالنسبة له هم مرتدون،¹ وأكد أن القرصنة تجلب لأصحابها أموالاً كثيرة وهي باب من أبواب الربح، لذا حدث حول العمل فيها في فترة من الفترات منافسة شديدة بين الانكشاريين ورجال البحر، جعلت القرصنة يرفضون رفضاً قاطعاً أن يخرج معهم أي انكشاري، ونظروا إليهم كمنافسين وارتبطت هذه النظرة بالأرباح الوفيرة التي تدرها عمليات القرصنة، هذا الرفض أوقع عداوة كبيرة بين الطرفين حتى عام 1568 زمن محمد باشا ابن صالح راييس باشا الجزائر، حيث تصالح القرصنة مع الانكشاريين وتقرر أنه بإمكان الانكشاريين ركوب البحر والخروج مع الرياس والقيام بنفس الدور، وأيضاً بإمكان كل قرصان إن أراد الانضمام للانكشارية.²

وعبر الأب الفرنسي "دان" الذي كان قد أقام بمدينة الجزائر من 15 جويلية إلى 31 سبتمبر 1634 وكان مكلفاً بافتداء الأسرى، عن صفة اللصوصية ونكث الوعود حينما صور القرصنة الجزائريين في أشع صورة ووصفهم: "بأنهم لا عهد لهم ولا صدق، ولا يتورعون لنقض المعاهدات المصادق عليها لأول فرصة حينما يتعلق الأمر بمصالحهم، بل إنهم يفتعلون الأسباب لنكثها."³ ومما ذكره عن الجزائر أيضاً قوله: "كان البحر دائماً مغطى بالقرصنة الأتراك والبربر الذين قاموا بتخريب عظيم وقسوة لا تصدق."⁴ وحتى الدكتور "شو" الذي كانت إقامته في الجزائر لغرض علمي والبحث في مجال العلوم الطبيعية، فإنه لم يمانع في أن يدلي بدلوه في موضوع البحارة الجزائريين، واعتبر أن الدول الأوروبية حادت عن جادة الصواب لأنها اختارت طريق التفاوض وإبرام معاهدات السلام مع "البربريست"، وهذا ما جعلها أخفقت لأن المعاهدات مع الجزائر متزعزعة وغير ثابتة، وكان من الأحسن لأوروبا أن تجتمع وتوحد قواها للهجوم على الجزائر "مركز اللصوصية" وحتى يثبت رأيه بالدليل القاطع حسبه أورد في كتابه رد أحد الدايات على احتجاج قنصل انجليزي ضد اعتداءات البحارة الجزائريين "أنهم يشكلون عصابة وأنا رئيسها."⁵

¹- Haedo Fray Diego, **topographie histoire générale d'Alger**, traduit de l'espagnol par

MM.le Dr. Monneret et A. Berbrugger 1870, Alger, 1870, p74

²- Ibid. p57

³- عائشة غطاس، "نظرة حول تقييم بعض المصادر الغربية لسياسة الجزائر الخارجية خلال العهد

العثماني"، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ع. (5)، 1988، ص. 120.

⁴- نقلاً عن بلقاسم قرياش، "دور الكتابات الغربية في تشويه تاريخ الجزائر العثماني"، مجلة رفوف،

مخبر المخطوطات الجزائرية في غرب إفريقيا، جامعة أدرار، مج. 2، ع. 1، ماي 2014، ص. 142.

⁵- عائشة غطاس، المقال السابق، ص. 121.

وكانت الدول الغربية ترى أن النظام السياسي في الجزائر وسياسته الخارجية تقوم على مبدأ القرصنة ونتائجها، فالعثمانيون حينما أقاموا حكومة في الجزائر اعتمدوا على القرصنة لتكون المورد الأساسي لهم، كما ربطوا علاقتهم الخارجية بقوة قراصنتهم، وعلى هذا الأساس سمحوا لأنفسهم بحق التمتع بإعلان الحرب على كل دولة مسيحية لا تشتري رضاهم بمعاهدة صلح، وحسب وليام شالر القنصل الأمريكي في الجزائر (1816-1830) فإن نجاح هذه الحسابات ساعده ضعف الدول المسيحية البحرية وغباؤها وسياسة التنافس التي انتهجتها كل واحدة منها تجاه الأخرى، فطلت بذلك لسنين طويلة تمد العثمانيين بأموال طائلة أرضت حاجتهم وأكثر، بل جمعوا من الدول المسيحية كنوزا من الذهب والفضة،¹ لكننا لا نوافق شالر في طرحه الذي لم ينس من خلاله توجيه نداء للدول المسيحية لتتحد للقضاء على الجزائر، فالدول المسيحية لم تكن كلها ضعيفة وغبية، كما أن قوة الأسطول الجزائري هي التي جعلت كلمته مسموعة وشأنه كبير وهيئته محفوظة في عرض البحر.

وأكد هنري بروجنيارت (Henry Brogniart) صاحب كتاب القرصنة والحرب البحرية أن الجزائر كانت تقود حربا وهمية ضد عدو وهمي، وأن القرصنة بالنسبة للجزائريين هي مصدر ثروتهم الأساسي تقريبا، وهي عندهم عبارة عن الحرب المقدسة "الجهاد" وكانت مهمة السفن الجزائرية هي إذابة العدو الوهعي والمبتدع اسبانيا، ومن أجل هذا كان يجب تحطيم تجارتها وسلب سواحلها،² وكأن اسبانيا بالنسبة له كانت البلد المسالم الذي لم يرفع سيفاً، أو يحمل راية العدوان على الجزائر والعديد من بلاد المسلمين.

وأكدت المصادر الأجنبية أن نتائج القرصنة الجزائرية على العالم المسيحي كانت وخيمة على مر السنين من عدة جوانب، فالجزائر كانت منافسا عنيدا لكل الأساطيل البحرية، وأذاقت معظمها كأس النذل ومرارة الهزيمة، كما اقتاد القرصنة الجزائريون الأسرى المسيحيين وتحكموا في مصيرهم، بالإضافة إلى الأموال الطائلة والمغانم الكبيرة التي كان يجنمها الأسطول، ويستفيد منها البحارة والحكومة، وقد وصف هايديو مثلا فترة حكم عروج بأنها الفترة التي أذاق فيها المآسي الكبرى للمسيحيين، رغم أنه اعترف بشجاعته وشهامته وهيئته بين البحارة والجنود،³ وكان يصف حروب

¹ - وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تعريب وتعليق وتقديم

اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982، ص. 63، 58.

² - بلقاسم قرياش، المقال السابق، ص-ص 140-141.

³ - HaedoFray Diego, *histoire des rois d'Alger*, traduit et annotée par H. D. De. Grammont, Adolphe Jourdan libraire-éditeur, Alger, 1881, p34.

الأسطول الجزائري ضد الأساطيل المسيحية بالعدوان والظلم، وهو ما لا يصف به الأسطول المسيحي، ويرجع هزيمة المسيحيين وانتصار الجزائريين للحظ السيئ بالنسبة للمسيحيين، وحسن استغلال الفرص بالنسبة للجزائريين، ورغم ذلك لا يستطيع إنكار انتصار الجزائريين الذين طالما ألحقوا الهزيمة بالأسطول المسيحي، ورجعوا للديار محملين بالغنائم، بعد أن أنقذوا أعدادا من الموريسكيين، فعلى سبيل المثال لا الحصر ما وصفه لإحدى خرجات "القراصنة" الجزائريين عام 1529 حيث غنموا سبع سفن شراعية مسيحية والعديد من الأسرى بالإضافة إلى إنقاذ المورسكيين. أين استقبلهم خير الدين بعد عودتهم بأكبر غبطة وابتهاج، وأخذ لنفسه ما شاء من الأسرى المهمين، لكنه لاحقا وصف هذا الملك بأنه قتل بوحشية ومزق أجساد أسراه بضربات المنجنيق.¹

ولكن يبدو أن هذه الانتصارات والمغانم التي كانت تعد مسروقات والتي أحرقت قلوب المسيحيين وسلبت النعاس من أعينهم، قد تراجعت خلال القرن التاسع عشر، وهو ما عبر عنه وليام شالر بقوله: "ولكن ابتداء من 1815 لم تعد تلك الحكومة تجني أية أرباح من النهب والسلب في عرض البحار."² وتدهورت الوضعية المالية لرياس البحر بلغت حد العوز وهو ما وصف به حالة ربان سفينة عثمانى توقف عن العمل، وقادته ظروفه البائسة وحالة العوز التي كان يعيشها إلى أن يقتصر من وليام شالر دولارا واحدا ليواجه به صعاب الحياة،³ كما أن أهم سفن الأسطول الجزائري قد حطمتها الأساطيل البريطانية والهولندية أثناء المعركة البحرية التي دارت عام 1816 المعروفة بحملة "إكسماوث"، ولم تعد الجزائر بتلك القوة التي تمكنها من فرض معاهدات وفق شروطها الخاصة على الدول الأوروبية، فبريطانيا وفرنسا وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية وسرديانة واسبانيا، كلها تمكنت من عقد معاهدات منفصلة ولم تعد تدفع في مقابلها أي مبالغ مالية على سبيل الضريبة.⁴

2.1- القسوة والظلم والجشع

لقد ربطت أغلب المصادر الأجنبية سلوك البحارة الجزائريين بالقسوة والظلم والجشع وحب إراقة الدماء، ولعل كتابات هايدو خير مثال يضرب في هذا الباب، فطالما صور بؤس الأسرى المسيحيين الضعفاء على يد البحارة الجزائريين، وتبنى نظرة العداء والعنصرية ضد الأسطول الجزائري والبحارة،

¹ - Ibid. p40.

² - وليام شالر، المصدر السابق، ص58.

³ - المصدر نفسه، ص57.

⁴ - المصدر نفسه، ص-ص 63-64.

وتحدث هذا الأسير عن أصناف من العذاب وأنواع من العقوبات، طالت الأسرى و الدول الأوروبية على يد الأسطول الجزائري وبحارته، ولطالما كانت عبارات الشتم والوحشية مقترنة بكل ما يريد أن يعبر عنه حول الجزائر والجزائريين حكومة وجيشا وأسطولا، فعلى سبيل المثال لا الحصر يصف قسوة البحارة الجزائريين في معاملتهم للأسرى المسيحيين الذين يعملون في التجديف على ظهر السفينة، وذكر أصنافا من الممارسات غير الإنسانية التي كان ينزلها هؤلاء القراصنة بمن تحت أيديهم من الأسرى المسيحيين، فذكر ضوابط العصا واللكمات باليد والركلات والسياط والجوع والعطش المصحوبين بسوء المعاملة واستخدام القوة المفرطة، هي الممارسات المستمرة التي يتعرض لها المجدفون المسيحيون الفقراء، دون تركهم يرتاحون لمدة نصف ساعة، يشقون لهم أكتافهم ويمتصون دماؤهم ويفقعون عيونهم ويكسرون أذرعهم وعظامهم ويقطعون آذانهم وأنوفهم وحتى حناجرهم بطريقة وحشية، يقطعون رؤوسهم أيضا ويرمونها في البحر كل هذا من أجل أن تبحر السفينة (الغليوت *galiote*) على الماء، حتى أن اللغة تعجز عن التعبير عن مثل هذه الفظائع والقلم يقف عاجزا عن الكتابة عن مثل هذه الأعمال الرهيبة، والتي هي عموما نصيب كل الأسرى المسيحيين في الجزائر.¹

وانتشرت الشائعات حول قسوة البحارة الجزائريين وظلمهم حتى جابت بقاع الأرض ووصلت مسامع الجميع، والأكيد أن كل من يروي رواية حول القسوة يجتهد في إقناع الناس بها ويتفنن في روايتها، ولعل هذا ما يفسر تمني الأسير "تيدنا" الذي أسر بتاريخ 02 أفريل 1779 غرق سفينتهم على العبودية والأسر على يد الجزائريين فربما الموت حسبه أهون، خاصة وأنه كان يتوقع معاملة سيئة،² قسوة البحارة طالت حتى الحكام العثمانيين أنفسهم وهذا ما يفسر تلقيهم لأجرتهم في البحرية على مسؤولية الأدميرال حسب فونتير دو بارادي لأنه يخشى اعتداؤهم على الحاكم إن دفعت لهم مرتباتهم داخل القصر، وهناك العديد من الدايات قتلوا على أيديهم، ويعد علي باشا هو من سن هذه العملية،³ ويبدو أن هذا الحاكم قد تمتع بالذكاء إذ حسب فونتير دو بارادي اعتنى بوسائل تأمينه ومنع أي تركي من دخول القصر بأسلحته، وكان مدينا بهذا الاحتياط الحكيم أن مات في فراشه بعد أكثر من

¹ - HaedoFray Diego, **topographie histoire générale d'Alger**, op cit. p82

² - احميدة عميراوي، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني مذكرات تيدنا أنموذجا، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص45

³ - Venture De Paradis, **ALGER AU xvii siècles**, Adolphe Jourdan, Alger, 1898, p-p62-63.

عشر سنوات من حكمه، لقد كان شجاعا وكريما، وكان سفاكا للدماء بنفس سهولة إنفاق الذهب والفضة بهذه العبارات وصفه فونتير دو بارادي¹.

وصور هايدو تعطش البحارة الجزائريين لإراقة دماء المسيحيين كما تراق دماء الشاة المذبوحة، وأن هدفهم في ركوب البحر هو اقتلاع جذور المسيحيين والقضاء عليهم عن بكرة أبيهم، وإلحاق الأذى بهم، وهذه هي نية القراصنة وهدفهم الأسمى، ففي اليوم الذي يتم فيه إطلاق السفينة الحربية لتشق البحر، ويقترب قوس (الغليوت) من الماء يقوم أحد القراصنة بنحر خروفين أو ثلاثة، وعندما يتدفق الدم الساخن بوفرة يتم دفع السفينة بقوة نحو البحر... وفي الوقت نفسه تطلق من المدينة بعض الطلقات النارية من المدفع ويحتفل كل القراصنة، وتفسر الأضحية على أنها تجسيد لصورة سفك دماء المسيحيين، الذين يجب قتلهم وإراقة دمهم، وكل هذا يقام عند انطلاق السفينة للإبحار في يومها الأول، وكما تكون فرحة القراصنة كبيرة وتفاؤلهم شديد عند زبوة أحد المراتبين لهم عند الانطلاق لأخذ بركتة².

ومن الأوصاف التي ألصقت بشدة في البحارة الجزائريين من طرف المصادر الغربية صفة "الجشع" فهيدو طالما وصفهم بالجشع ووصف ما تحصلوا عليه في البحر بـ"المسروقات" واعتبر أن هؤلاء الأشخاص "القراصنة" عمليون جدا في ممارسة القرصنة، والقبض على المسيحيين، والحصول على الغنائم الكثيرة، واقتياد عدد كبير من الأسرى، وباستطاعتهم في العام الواحد الخروج لممارسة القرصنة ثلاث أو أربع مرات وحتى أكثر، ويتصرفون في سلعهم (مسروقاتهم) لاحقا في عدة أسواق في المشرق والمغرب وبلدان أخرى من بلدان العالم³.

وعبر الأسير "كريمي" الذي أسر من طرف البحارة الجزائريين ودام أسره بالجزائر خمسة أشهر ماي-أكتوبر 1619 عن البحارة الجزائريين وجشعهم، وقلة وفائهم بالعهد: "إن هؤلاء نهاب البحر مثلهم كمثل الحيوانات المتوحشة ينقضون على الغنائم وهم يصرخون بكل شراسة، ثم يستولون على السفينة وما احتوته طمعا بالثروة، حتى لو كانت السفينة لإحدى الدول المرتبطة بمعاهدة صداقة معهم"⁴. وقاد هذا الأسير حربا كلامية ضد الجزائريين والمسلمين، وكانت كتاباته عبارة عن نداء للشم

¹ - Ibid. p59

² - Haedo Fray Diego, **topographie histoire générale d'Alger**, op cit. p 76

³ - Ibid. p 80

⁴ - عائشة غطاس، المقال السابق، ص 120.

الصلبيين للقضاء على الجزائر ومسلمي حوض البحر الأبيض المتوسط، والجزائر بالنسبة له البلاد التي جمعت مختلف المصائب وهي مصدر بلاء أوروبا، ومغارة اللصوص ومهد القسوة والفظاظة بشتى صورها،¹ وصفة الجشع أكدها أيضا "تيدنا" حينما اعتبر أن أسر السفينة التي كان على متنها في البحر لم ترض جشع القراصنة الجزائريين بقوله: "كانت الغنيمة التي استولى عليها الجزائريون أقل أهمية مما كان ينتظر جشعهم، وقال لي أحدهم وهو يتكلم جيدا الإسبانية مؤكدا لي أنهم لو علموا بقيمة هذه الغنيمة فإنهم لم يبتعدوا أبدا عن طريقهم، ولم يهاجمونا لأنهم كانوا ذاهبين لملافاة مركب نابوليتاني كبير..."²

ووصف فونتير دو بارادي جشع البحارة الجزائريين والثروة الكبيرة التي يجنونها من ممارسة القرصنة، والذي اعتبره نهبا لكنه أشار إلى أن قرصنة الجزائر يفرقون في معاملتهم بين السفينة التي استسلمت دون مقاومة، وبين السفينة التي قاومت ولم تستسلم، فإذا تمكن القرصان من ضبط سفينة للعدو فإن جموع البحارة يقومون بمهاجمة تلك السفينة، فإن قاومت السفينة التي تعرضت للهجوم ودافعت عن نفسها بشكل جيد، فإن البحارة يتسابقون لنهب وسلب ركاها، ويغنم القرصان الجزائري ما في حجرة ربانها، لكن لا يمد أحد منهم يده على بضائع وممتلكات السفينة، أما إذا استسلمت سفينة العدو للقرصان الجزائري دون مقاومة فإن ركاها لا يتعرضون للنهب، ولا يحق للرايس أن يتصرف فيها بل يقودها بنفسه أو يرسلها مع أحد رجاله إلى الجزائر، وهناك يتم التصرف في ممتلكاتها والبضائع والأسرى... حسب المعمول به، وعبر فونتير دو بارادي عن حالة عدم النهب بكلمة " لا توجد كارا بورتا cara porta" و "كارا بورتا هي الكلمة المستخدمة في الجزائر العاصمة للدلالة على النهب دون أسباب وجيهة للغاية كما أشار فونتير دو بارادي."³

3.1- شجاعة البحارة الجزائريين ومناوراتهم في البحر

ربما الأمر الوحيد الذي لم تستطع المصادر الأجنبية إنكاره بخصوص البحارة الجزائريين، هو ما امتازوا به من قوة وشجاعة وحسن استغلال الفرص في عرض البحر، ومن المؤكد أن هذا الأمر كان واضحا ولا مجال لإنكاره، وهو ما جعل فونتير دو بارادي يؤكد بأن القراصنة الجزائريين لا يستمتعون بإطلاق المدافع فهم يسعون إلى الاقتراب من سفينة العدو، ويجب الاعتراف بأنهم يتمتعون بميزة كبيرة

¹ -المقال نفسه، ص120.

² -احميدة عميرواي، المرجع السابق، ص45.

³ -Venture De Paradis, op cit, p 41,48,

بعد ذلك... لا يمكن إنكار قوة جسدهم وعزيمتهم،¹ ووصف هايدو خرجاتهم بأنهم يبشرون شتاء وربيعا دون خوف، ويجوبون البحر المتوسط من الشروق إلى الغروب، متجولين عبر الموانئ المسيحية، دون أن يعيروا أي اهتمام لمراكب المسيحيين. وكانوا يسخرون ويستهنئون ببخارة وسفن المسيحيين الذين استمتع طاقمها واستأنس بالطعام والملاهي بالموانئ المسيحية، حتى يبدو أن قراصنة الجزائر خرجوا لصيد الأرناب البرية، فيقتلون واحدا هنا والآخر هناك... وهذا راجع لكون المراكب الجزائرية خفيفة تشق الريح، على عكس المراكب المسيحية الثقيلة التي لا تستطيع المطاردة، ومنع السفن الجزائرية من الغزو حسيما يحلوا لها،² وهذا ما أكده الأسير البرتغالي أيضا "جاو ماسكارينهاس" (بين 1621 و1625) حين وصف بخارة الجزائر بأن لهم السطوة في البحر للوصول إلى أهدافهم.³

وأكد الأسير "كاثكارث" الذي أسر في الجزائر ما بين 1785-1796 شجاعة البحارة الجزائريين الذين كانوا حريصين دائما على محاولة القفز إلى سفينة الأعداء، والسيطرة عليها بعد الطلقات الأولى للمدافع مباشرة، لأنهم كانوا يدركون أن نيران مدافع السفن المسيحية أقوى من نيران مدافعهم وأكثر إحكاما، فتبنوا حربه سياسة الهجوم السريع بالصعود إلى ظهر سفينة العدو، وعلى الرغم من أنهم أقل خبرة بفن اللاحه وتسديد نيران المدافع من البحارة المسيحيين،⁴ فإن البحارة الجزائريين أكثر شجاعة ونشاطا وجرأة من البحارة الأوروبيين إنهم يعتقدون أنه ما من أحد يستطيع أن يقف في وجه تهورهم، وهم متأكدون من انتصارهم متى وضعوا أقدامهم على ظهر سفينة العدو، ولهذا السبب "يجب الحذر من امتطائهم سفينتك وكأعداء يجب ألا تقلل من خطرهم".⁵

وتحدث "تيدنا" عن الحيلة التي لجأ إليها البحارة الجزائريون وانطلت عليهم حتى وقعوا في الأسر، فقد كان المركبان الجزائريان اللذان استخدمتا في الهجوم على مركب تيدنا ورفاقه يبدوان وكأنهما مركبان فرنسيان، لأن القراصنة الجزائريين الذين تقفوا أثر المركب المسيحي لمدة طويلة من دون أن يلحقهما أحد استعملوا الحيلة من أجل النجاح، إذ ساروا دائما نحو الشمال حتى خدعوا

¹ - Ibid. p41

² - Haedo Fray Diego, *histoire des rois d'Alger*, op.cit. p 80

³ - فاتح بلعمري، الحياة الحضريّة في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2016-2017، ص 273.

⁴ - جيمس كاثكارث، مذكرات أسير الداوي كاثكارث قنصل أمريكا في الجزائر، ترجمة وتقديم وتعليق:

إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 81.

⁵ - المصدر نفسه، ص 81.

الطرف الآخر بطريقة جيدة، وحين اقتربوا من مركب تيدنا استغلوا شدة الرياح وهجموا عليه، ولم تكتشف هذه المناورات إلا بعد فوات الأوان، مما تسبب في سقوط المركب المسيحي في يد البحارة الجزائريين، وخيبة أمل أصحابه الذين فاتهم أي فرصة للنجاة، ولم يتمكنوا من مواجهة الثمانين بحارا جزائريا المسلحين على حد تعبير تيدنا أشد التسليح، وسيطروا على الوضع على المركب المسيحي الذي اقتحمه نحو ثلاثين بحارا واستولوا عليه رغم هيجان البحر، ونقلوا الأسرى إلى إحدى سفنهم.¹

ومن جهته اعترف وليام شالر بمقدرة الجزائريين التي لا تفوقها مقدرة أي شعب آخر في العالم في تجهيز الأساطيل وتسليحها للقتال، إلا أنه نفى مهارة البحارة وتمكنهم من البحر فهم يجهلون الملاحة وطرق المناورة في المعارك البحرية، والسفن الحربية الجزائرية التي أتيج له رؤيتها لم تعتبر عنده سفنا تستحق أي اهتمام، واعتبر شجاعة الجزائريين في البحر مجرد ذكرى، وأما روح الجرأة الخارقة التي نسبت إليهم فهي حسبه نتيجة فساد سياسة الدول الأوروبية ومؤامراتهم وجشعهم²، واعتبر أن القرآن الكريم هو كل علوم البحارة وآدابهم، في حين أن ما يحتاجون إليه من علوم البحر فإن بعض الرياس وقادة البحار وربابنة السفن أخذوه وتعلموه من الأجانب، كتحديد العروض وترجمة الجداول الفلكية إلى العربية، التي تستخدم في نشاطهم في البحر الأبيض، وحين يجتازون مضيق جبل طارق للملاحة في المحيط الأطلسي فهم يضطرون إلى الالتجاء لأول سفينة مسيحية تصادفهم، ومنها يستعيرون بحارة لمساعدتهم وتوجههم للعودة للبحر الأبيض³، وهذه النقطة يوافقها الأسير كاتكارث حيث يعتبر البحارة الجزائريين لا يملكون الخبرة الكافية في فن الملاحة وتسديد نيران المدافع، كما أن رجال المدفعية الثقيلة والخفيفة لا يملكون علما ولا تدريبا، و عموما يعتمد البحارة الجزائريون كثيرا على أعمال الأسرى المسيحيين، في الصيانة وغيرها من الأعمال التي من المروض هي أعمالهم،⁴ بساطة المعرفة عند البحارة الجزائريين وجهلهم بالملاحة نجده أيضا عند حمدان خوجة حيث أكد أن قواد السفن يجهلون فن الملاحة، وكانت قمم الجبال هي بوصلتهم التي تقودهم في سيرهم وتساعدهم على بلوغ الهدف، ومن بين ما كانوا يعرفونه أن الساحل الإسباني في الشمال والساحل الإفريقي في الجنوب، لكنهم وقت الحرب "كانوا يحاربون بشجاعة وإقدام موقنين بأنهم إنما يستشهدون في سبيل الدين."⁵

¹ - احميدة عميراوي، المرجع السابق، ص44-45.

² - وليام شالر، المصدر السابق، ص63.

³ - المصدر نفسه، ص-ص81-82.

⁴ - جيمس كاتكارث، المصدر السابق، ص75،81.

⁵ - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص79،77.

والجدير بالذكر أن الأسطول الجزائري تراجع كثيرا أواخر العهد العثماني وتحطم جزء مهم منه نتيجة حملة اكسموث عام 1816 لذا وصفه شالر في هذه المرحلة التي اتسمت بالضعف بقوله: " تلك هي حالة الأسطول الجزائري الذي يتمتع بشهرة عظيمة تردد صداها في أغاني الشعراء، ويرتعد من ذكره الأطفال والعجائز، والذي تسبب في إهانة كثير من الدول".¹ وكان يقصد هنا حالة الوهن الذي أصابته، وأضاف متسائلا كيف سمح لدولة ذات قوة متواضعة أن تعرقل التجارة وتفرض ضرائب لا تقبل المناقشة على المسيحيين ولمدة طويلة، ويتحسر كيف لم تجتمع الدول البحرية الأوروبية للسيطرة على الجزائر واحتلالها، وكيف فكرت في إقامة مستعمرات بعيدة خسرت لإقامتها الأموال الطائلة والرجال، في الوقت الذي "تستحوذ فيه حفنة من القراصنة المغامرين" على أجمل بقعة في العالم، ولا تتردد هذه الحفنة في إذلال الدول المسيحية بفرض شروط هي أقرب إلى التبعية التي يفرضها ملك قوي على أمير صغير.²

2- مناقشة نظرة المصادر الأجنبية:

إن المتصفح لجل المصادر الأجنبية يجدها تصب في مجرى واحد وهو العداء للجزائريين ما له صلة بالعثمانيين، ووصف نشاط الأسطول والبحارة بالقرصنة، وتشويه سمعتهم وسمعة الحكام العثمانيين، مما دفع أحمد توفيق المدني للتعبير عن تلك الأوصاف والمغالطات عامة أنه لا يعرف: "عصرا من عصور التاريخ في بقعة من بقاع الأرض ناله من الحيف والجور وتلطيخ السمعة وامتهان الكرامة، ما نال من ذلك عصر حكم الأتراك العثمانيين بأرض الجزائر إنك لتقرأ ما يكتبه... فيخيل إليك أن القطر الجزائري بأسره ما كان خلال تلك الأيام الطويلة إلا مغارة من مغاور السفاكين وملجأ يركن إليه السفاحون من لصوص البحر والبر..."³ ولم يكن هذا رأي أحمد توفيق المدني فقط، فحتى عائشة غطاس ومولاي بلحميسي وكلاهما من الأعلام الجادة والكبيرة في الدراسات العثمانية بالجزائر، أكدا أن أكثر ما كتب حول الجزائر خلال العهد العثماني كان غير منصف رغم كثرته، مليئا بالأفكار المسبقة والنوايا المغرضة والتحيز الأعمى.⁴

وإن أردنا مناقشة المغالطات التي تضمنتها المصادر الأجنبية حول البحارة والأسطول، فإن أول ما يشد الانتباه هو وصف "القرصنة" لنشاط الأسطول والبحارة الجزائريين، القرصنة هنا بمفهومها

¹ - وليام شالر، المصدر السابق، ص 63.

² - المصدر نفسه، ص 63.

³ - أحمد توفيق المدني، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791 سيرته، حروبه، أعماله، نظام

الدولة والسيادة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 7

⁴ - يراجع مقال عائشة غطاس ومولاي بلحميسي السابقان

السليبي التي تعني السلب والنهب والسرقة والتمرد على القوانين والأعراف المرتبطة بحروب البحر، إن قضية القرصنة وما نتج عنها من أسرى ورعب للعالم المسيحي، أسالت حبرا كثيرا وكانت الصفة الغالبة للبحارة الجزائريين، فهل فعلا انفردت الجزائر بالعمل في مجال القرصنة؟ وهل فعلا كانت بهذه الصورة الوحشية؟

بالنسبة للفظ القرصنة يذهب المؤرخ ابن أشهبو حوله بأنه لا يوجد مرادف له في اللغة العربية، إنما استعربت الكلمة في القرن 9 هـ. وكان يسمى من يتعاطاها قرصانا، وهم معروفون عند ابن خلدون بغزاة البحر، وقد مهر فيها الأتراك والجزائريون وخصوصا منهم أهل بجاية وشرشال ووهران،¹ وذهبت كورين شوفالييه إلى أن القرصنة بالنسبة للمسلمين هي قبل كل شيء شكل من أشكال الجهاد في البحر،² وبالتالي يمكن اعتبار اللفظ دخيل على الكتابات العربية. وحتى توظيفه والإيحاء الذي يحمله هو نتيجة نقله من المصادر الأجنبية، لأن المسلمين ونتيجة تكوينهم الديني فإن استخدام لفظ الجهاد هو الأنسب لوصف تصديهم لتوسعات واعتداءات المسيحيين في عرض البحر، فيكون بذلك جهاد بحري كما يكون جهاد بري.

وشكل النشاط البحري الذي أطلق عليه مصطلح القرصنة مهنة للكثير من الدول المطللة على البحر، والقرصنة كما يؤكد "فرنان بروديل" هي ظاهرة قديمة في المتوسط، وفي أماكن أخرى، ولها قوانينها التي تحكمها حتى وإن اختلفت هذه القوانين من المتوسط إلى الأطلس³، لكن رغم ذلك ركز المؤرخون على "قرصنة إسلامية" خاصة في الجزائر، والحقيقة التاريخية الثابتة أن القرصنة كانت منتشرة في أنحاء المتوسط كله، من دون أن تعرف دينا أو وطننا فهي مهنة للعيش، والمسيحيين مارسوا هذا النوع من النشاط قبل أن تمارسه الجزائر العثمانية، ولم يكن نشاطا فرديا بل نشاط جماعات كبيرة، وكانت مالطا مركزا للقرصنة وشبكاتهما كما كانت الجزائر، فالقرصنة بتقلباتها ومناطق ازدهارها كانت عبارة عن جزء من الحياة المتوسطية، وفي فترة من الفترات التاريخية خاصة في أعقاب سقوط "رودوس" بيد العثمانيين عام 1522 ازدهرت القرصنة الإسلامية انطلاقا من شمال إفريقيا، وتوسع لاحقا نشاط القرصنة المسيحية إلى جانب القرصنة الإسلامية، وذلك بالوتيرة نفسها حتى بداية القرن السابع عشر، حين تميزت القرصنة الجزائرية بأسلوبها المتطور على الانطلاق في اتجاه المحيط

¹ - نقلا عن محمد بن سعيدان، المقال السابق، ص. 81

² - كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص. 49

³ - فرنان بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب وإيجاز مروان أبي سمرا، دارالمنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ط. 1، بيروت، 1993، ص. 151.

الأطلسي، في حين ولأسباب تاريخية توغلت القرصنة المسيحية في المشرق، وكان المالطيون أسياد القرصنة قبل أن ينازعهم على سيادتها قراصنة "توسكانا" ويتفوقوا عليهم.¹

وقدم نشاط القراصنة وانتشار القرصنة في البحر الأبيض المتوسط أكدته أيضا كورين شوفالييه، معتبرة أن القرصنة ظاهرة قديمة قدم التاريخ، وربطها بالنشاط الاقتصادي ووصفتها "بالحرب المشروعة" التي تتم بواسطة بيان صريح للحرب، أو ترخيص يتم بموجبه تجهيز سفينة حربية، جوازات سفر، لجان وتعليمات...والقرصنة لها قوانينها وأنظمتها وعاداتها وتقاليدها، حتى أن بحريات الدول الرسمية تقبل في صفوفها القراصنة الذين ينجون تارة، ولا ينجون تارة أخرى، وأكدت أن القرصنة ليست عملا خاصا بل هي عمل الدولة.²

وضح أحمد توفيق المدني من جانبه قضية القرصنة في الجزائر خلال العهد العثماني، واعتبرها شكلا من أشكال الحروب المشروعة والنظامية، شاركت فيها كل دول العالم ولم تكن مقصورة على الجزائر، ولم يجد مبررا لمغالاة المصادر الأجنبية في وصف القرصنة الجزائرية وربطها بلصومية البحر، على الرغم من التزامها بالأعراف والقوانين حينها ولا تتعداها إلا نادرا، بينما يغضون الطرف على قرصنة أوروبا، و أرجع السبب الرئيس في ظهور القرصنة في الجزائر خلال العهد العثماني إلى الدفاع عن النفس والوقوف في وجه القرصنة الاسبانية والبرتغالية، اللتان كانتا تمثلان لصوصية البحر حقيقة ودون مبرر، كما استغرب المدني من مبالغة المصادر الأجنبية والمؤرخين الذين نقلوا عنهم في التهجم على القرصنة الجزائرية، وكأن أوروبا خالية من القراصنة، فالقراصنة العثمانيون والجزائريون لم يكونوا وحدهم على سطح البحر، بل إن تاريخ القرصنة الأوروبية حافل بأسماء الرجال، وفهم من يعد الآن من الأبطال في قومه رغم تاريخه الدموي، على غرار "سركوف" و"جون بار" الفرنسيين، والعمل بالقرصنة استمر منتشرا في العالم حتى بعد احتلال الجزائر مما يؤكد أنها ليست الوحيدة التي كانت تمارسه.³

أما بالنسبة لجون وولف فقد تساءل حول الفرق بين البحارة والقراصنة ؟ واعتبر أن القرصان هو الشخص الحر في النهب وهدفه دائما هو النهب دون أن يعترف بأي سلطة فوق إرادته الخاصة، ولكن رياس البحر كانوا موكلين من غيرهم للقيام بهذه المهمة، أما البحارة فهم يحاربون باسم الدين فإما باسم الصليب أو الجهاد، على أمل أن أعمالهم مباركة من عند الله، وسأوى بين المسلمين والمسيحيين اللذين جعلوا البحر غير آمن في فترة تاريخية معينة كل على حساب الآخر، واعتبر أن كلا

¹ - فرنان بروديل، المرجع السابق، ص 152.

² - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 49.

³ - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص-ص 10-11

من الإنجيل والقرآن يحرمان القرصنة ولكنهما يباركان الحرب المقدسة، ولكن لاعتبارات مادية ومعنوية مارس الجميع القرصنة، لأن الثروة قد انهالت عليهم كالمطر بالإضافة إلى وعود الخلاص في الآخرة، وأصبح من الصعب أحيانا التمييز ما إذا كان المهاجمون يقومون بمهمة البحارة أو يلعبون دور القرصان، كان الكثير منهم مجرد قراصنة رافضين لأي قانون غير إرادتهم الخاصة، وكانوا جزء من حروب القرصنة التي جعلت البحر الأبيض محفوفًا بالمخاطر على كل من المسيحيين والمسلمين على حد سواء.¹

ونتأكد بهذا من عدة أمور منها: أن القرصنة ظاهرة قديمة اعتمدت على قانون الأقوى، مارستها مختلف الدول المطلة على البحر حتى قبل أن تمارسها الجزائر، وكانت عبارة عن نشاط اقتصادي كما كانت عبارة عن نشاط عسكري، فكما استخدمت في الهجوم أو الدفاع من أجل تأمين الحدود أو توسيع رقعة البلاد، استخدمت لتحصيل الضرائب وجمع الغنائم وتجارة الأسرى، والجزائر لم تنفرد بهذا النشاط، لكن يبدو أن تميزها ونجاحها في ممارستها خاصة خلال القرن السابع عشر هو ما جلب لها الأعين، وسخط الأوروبيين ومقتهم، فكانت تلك المصادر تنفس عن غضب أصحابها، وغضب بلدانهم لتجاوز محنة الأسر وسلسلة الهزائم التي ذاقوها على يد الجزائريين.

إن الربط بين القرصنة الجزائرية ولصوصية البحر، لم يقبلها حتى بعض الكتاب الأوروبيين أنفسهم وإن كانوا قلة قليلة، ومن بينهم "لوجي دي تاسي" (Laugier de Tassy) الذي يعد حسب عائشة غطاس من رواد التيار الفكري الذي نادى برفض الذهنية الموروثة عن القرن السابع عشر، وإعادة النظر في تقييم الغير وتجاوز الأحكام المسبقة والنظرة العنصرية.²

لقد اهتم لوجي دي تاسي بالمؤسسة البحرية الجزائرية، واعتبر أن الرياس يشكلون جهازا هاما في الجزائر لما يجلبون من ثروات للبلاد،³ لكنه لم يرض بالأحكام المسبقة والنظرة التي علقت بهذه المؤسسة، ومن خلال مقدمة كتابه وما ختم به أيضا، أكد أنه يهدف بما كتبه للقضاء على الأحكام المسبقة والمتحيزة العالقة بالجزائر والحكام العثمانيين، من أجل إعادة بناء طريقة التعامل مع هذا البلد وسكانه، الذي عانى من الدعاية غير العادلة الناتجة عن التعصب الأعلى ضد كل ما هو جزائري وعثماني، واعتبر أن تحيز معظم المسيحيين ضد العثمانيين وبقية المسلمين مرده إلى روايات الرهبان والأسبان ومؤلفاتهم، وما رواه الأسرى الذين يبحثون من وراء رواياتهم عن الفداء، وعمدوا إلى أسلوب

¹ - جون ب. وولف، الجزائر وأوروبا 1500-1830، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الرائد-

عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص-ص 179-180

² - عائشة غطاس، المقال السابق، ص 120

³ - Laugier De Tassy, *histoire du royaume d'Alger*, Henri du Sauzet, Amsterdam, p260

التمويه حرصا على تقديم صورة لواقع الأسرى المخيف، من أجل استعطاف الناس والحكام المسيحيين للحصول على الصدقات والتبرعات لتغطية تكاليف الفداء.¹

وانتقد لوجي دي تاسي الأحكام المسبقة والشائعة حول البحارة الجزائريين ونشاط القرصنة، معتبرا أن هذا النشاط لم يكن حكرا على قرصنة الجزائر، وأشار إلى ذلك بقوله بأن معشر الأوروبيين يدعون دائما بأن عرب وسكان بلاد البربر والمور لصوص وصعاليك وبؤساء، يقومون بنهب الرحالة والمسافرين المسيحيين، يقتلون ويسرقون ويأسرون وينهبون السفن بسواحلهم، إلا أن ذلك لا يعد عيبا في سلطتهم وحكومتهم، فالدول الأكثر تحضرا لا يندم بها اللصوص وقطاع الطرق، الذين يلحقون الأذى وأقسى العقوبات بالناس، ألا تعج سردينيا وكورسيكا باللصوص والسفاحين الذين يتمتعون بحماية أمراء أسياذ البر والغابات؟ فمن هذا المنطلق المسيحيون يشبهون البرابرة... وحتى في البلدان التي تسودها القوانين العادلة يخترق بعض الأشخاص هذه القوانين، ويسطون على سفن الغريب بل حتى على سفن مواطنهم المسيحيين.²

واستمر لوجي دي تاسي في مناقشة الأفكار السابقة والمغلوبة عن الجزائر والقرصنة، حيث أشار إلى أنه لطالما تم إلقاء اللوم على الجزائريين لكونهم قرصنة جشعين لا يشبعون، يعملون على استرقاق الأسرى المسيحيين لتعذيبهم، حقيقة تمثل القرصنة البحرية وقطع الطريق على السفن مهنة كريمة ودينية، ولكنها ليست مقصورة عليهم، ألا يخوض تنظيم مالطا ولأسباب دينية حربا متواصلة؟ ألا يقسمون على عدم صنع السلام أبدا مع المسلمين؟ ألم نر في الماضي الحروب الصليبية المتكررة من قبل المسيحيين من جميع أنحاء العالم لغزو آسيا وإفريقيا، والقضاء على المسلمين؟ بأي حق الأوروبيون وبواسطة أي طريقة أخذوا بلاد الهند الشاسعة الشرقية والغربية، من شعوب لم تسيئ إليهم إطلاقا؟ لقد ارتكبوا ضدهم جرائم قتل بعيدة عن كل مشاعر الإنسانية، لقد ذبحوهم وأبادوهم بكافة الأنواع، دون أن ننسى اعتداءات الإسبان على بعض البلدان... أليست هذه قرصنة؟ لذلك دعونا نعترف بذلك، يعتبر قانون الأقوى هو السائد بين كل الرجال.³

كان موقف دي تاسي ونظرتة للقرصنة الجزائرية مخالفا للكثير من المصادر الغربية، ولم يرض بالنظرة العنصرية العالقة بالجزائريين، واعتبر أمر القرصنة مرتبط بميزان القوة والنشاط الاقتصادي في تلك الفترة، وأوروبا في هذا لم تختلف إطلاقا عن الجزائر، واعتمد في تقييمه على مشاهداته الشخصية، ورفض الاعتماد على الأفكار المسبقة، ولم يعزل الجزائر عن ما كان يحدث في بقية الدول،

¹ - يراجع مقدمة الكتاب وما كتب في الأخير من ملاحظات

² - Laugier De Tassy, op cit, p-p 312-311

³ - Ibid. p 328

والصراع القائم على مناطق النفوذ، فشكلت بذلك نظرتة استثناء بين بني جلدته، ورد بنفسه على مزاعم الكثير منهم.

3- الأسباب الحقيقية لنظرة المصادر الأجنبية للأسطول والبحارة

الجزائريين

إن أول ما يتبادر للذهن بعد الاطلاع على المصادر الأجنبية ووصفها للبحارة والأسطول الجزائري، هو السؤال التالي: لماذا يا ترى كل هذه العنصرية والمغالطات والأوصاف المشينة في حق البحارة الجزائريين ونشاطهم؟

هناك أسباب وجمية عديدة للتحيز الأعلى الذي تبنته المصادر الأجنبية ضد الأسطول والبحارة الجزائريين خلال العهد العثماني، ويحيلها أحمد توفيق المدني لأسباب دينية وسياسية، فتلك المصادر لم تخل من التأثير بالدعايات الدينية والسياسية التي انتشرت في أوروبا ضد الإسلام عامة، والدولة العثمانية والأياالة الجزائرية خاصة، لصالح الكنيسة أو لصالح الدول الطامعة في احتلال الجزائر والسيطرة عليها،¹ ويتأكد هذا الطرح إذا علمنا أن أغلب المصادر الغربية دعت إلى شن حملات عسكرية أوروبية ضد الجزائر، وطبعت ونشرت تحت الرعاية الملكية والدينية الكاثوليكية، على غرار أعمال هايدو التي نسوقها على سبيل المثال لا الحصر، والتي قدمها باللغة الإسبانية تحت الرعاية الدينية الكاثوليكية عام 1608 وترجمت إلى الفرنسية، وقد تبنى واعتمد المجلس الأعلى الديني الكاثوليكي لمملكة سيسيليا العمل، ووافق على طبعه ونشره الملك نفسه عام 1610 ونشر عام 1612، ولا يستبعد أنه تم حذف أو تعديل أو زيادة بعض المعلومات بما وافق أهواء الكنيسة والملك خاصة ما تعلق بالمسيحيين،² ومهدت المصادر الغربية لاحقا للنظريات الاستعمارية التي تزعمتها المدرسة الفرنسية،³ وكانت أرضية الانطلاق للاستعمار الفرنسي للجزائر، من حيث التحريض ضد الأياالة والحكم العثماني ونشاط البحارة، وكذلك من حيث وصف البلاد وحالتها ومواطن ضعفها ومواطن قوتها.

-وامتازت العلاقات الجزائرية الأوروبية خلال العهد العثماني بالتوق والصراع، وكان الصراع صراعا عسكريا ودينيا، ولعب فيه رجال الكنيسة دورا لا يستهان به من تحريض وإملاء ما يريدون على مؤلفي تلك المصادر، الذين كان أغلبهم رهبان غلاة أو أسرى حرب في حاجة إلى الشهرة، أو ضباط يحلمون بالترقية أو قناصل عرفوا بالطيش، وهكذا جندت تلك المصادر نفسها لمهاجمة كل ما هو

¹ - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص.7.

² - احميدة عميراي، المرجع السابق، ص-ص 13-14.

³ - عائشة غطاس، المقال السابق، ص.124.

جزائري وعثماني بهدف أن تستجمع أوروبا قوتها، وتتحد فيما بينها للانقضاض على الجزائر، زعيمة المقاومة الإسلامية في الحوض الغربي من الأبيض المتوسط، وكان المؤرخون ينظرون إلى أيلة الجزائر على أنها منبع الشرور ومصدر الأخطار وموطن الأمراض.¹

-كان أصحاب هذه المصادر على يقين أن آراءهم ستكون مسموعة، وتحدث الأثر المطلوب على المجتمع الأوروبي المسيحي، لأنهم يتكلمون عن دراية، فأطلقوا العنان لأقلامهم لإثارة حماس العامة والحكومات لمهاجمة الجزائر، والقضاء عليها على وجه الخصوص، والقضاء على الإمبراطورية العثمانية على وجه العموم.²

-من دون شك أيضا أن المبالغة في وصف قسوة البحارة الجزائريين واتهامهم بالجشع ووصف حياة الأسرى بالجحيم والترويح للأفكار المغلوطة، كان له دوافع شخصية كالتي خصها لوجي دي تاسي بالذكر، وأغلبها تتمحور حول الأحكام المسيقة وإثارة الشفقة على أوضاع الأسرى لجمع التبرعات والصدقات لافتدائهم وتخليصهم من الأسر،³ حيث كلما ضخمت هذه الكتابات مسألة الأسر والمعاناة وقسوة البحارة تمكنوا من توفير أموال إضافية، كما يضاف إلى كل هذا المداخيل التي يكسبها هؤلاء الأسرى إذا طبعت مذكراتهم عن العبودية في الجزائر، بعد عودتهم للديار فقد كان الأمر مريحا فعلا وتجارة رائدة، وذكر جيمس ريلي أن قصة والده عن الأسر قد بيعت منها مليون نسخة، وكان من بين قرائها رئيس الولايات المتحدة الأمريكية لنكولن أبراهام، وطبعت روايات كثيرة عن الموضوع لا يتسع المجال لذكرها،⁴ وارتبطت القرصنة بقضية الأسرى وكان الموضوعان معا يشكلان محور ما عرف بأدب الأسر، ولم يكن الأمر متعلقا بأوروبا فقط بل حتى الأسرى الأمريكيين تركوا أديهم الخاص وتجربة أسرهم في الجزائر.⁵

لكن رغم الانتقادات التي طالت المصادر الأجنبية، إلا أنها تبقى مصادر مهمة رصدت لنا تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، وحملت بين طياتها معلومات كثيرة وشهادات وإحصاءات قد لا نجدها في غيرها من المصادر، والمطلوب من الباحث حسن استغلالها والحذر من الوقوع في فخها.

¹ - مولاي بلحميسي، المقال السابق، ص 103.

² - عائشة غطاس، المقال السابق، ص 119-120، 124.

³ - يراجع أيضا احميدة عميراوي، المرجع السابق، ص 28.

⁴ - بلقاسم قرياش، المقال السابق، ص 145، 144، 151.

⁵ - جيمس ويلسن ستيفن، الأسرى الأمريكيين في الجزائر 1785-1796، ترجمة على تابلت، منشورات

تالة، الجزائر، 2007، ص 3، 4.

الخاتمة:

- اتفقت أغلب المصادر الأجنبية على تشويه صورة الجزائر خلال العهد العثماني ونشاط أسطولها وبحارتها، ووصفت عملهم بالقرصنة بكل ما تحمله هذه الكلمة من سلبية، رغم أن الجزائر حينها لم تشكل استثناء، بل كانت واحدة من بين الكثير من الدول التي أقدمت على ممارسة هذا النشاط في إطاره العسكري والاقتصادي.

- عملت أغلب المصادر الأجنبية على تشويه صورة البحارة الجزائريين، ووصفتهم بالعديد من الأوصاف البشعة وكنت لهم كل مشاعر الحقد والكراهية، وقادت ضدهم دعاية مغرضة من أجل التخلص من الجزائر والسلطة العثمانية حاملة راية الجهاد والإسلام، حتى شكلت منطلقا للتحريض على الاستعمار.

- كانت "القرصنة" بالنسبة للجزائر مبنية على دافعين مهمين: الأول هو حماية البلاد من الاعتداءات الصليبية، والثاني هو ممارسة نشاط اقتصادي مثلها مثل غيرها من أغلب الدول البحرية، هذا النشاط كان له قوانينه وأعرافه ومميزاته حينها، لهذا فإن ربط القرصنة "بلصوصية البحر" هو ادعاء كاذب من المصادر الأجنبية لا مبرر له، ونظرا للمعنى السليبي الذي أرادت تكريسه فإنه يستحسن استخدام كلمة "الجهاد البحري" أو "غزاة البحر" للتعبير عن نشاط الأسطول والبحارة الجزائريين في الكتابات العربية.

- شكلت بعض المصادر الأجنبية استثناء في رؤيتها للنشاط البحري الجزائري، ورفضت النظرة الموروثة والأحكام المسبقة حول البحارة وممارسة القرصنة، وسعت لتصحيح بعض المغالطات المنتشرة، ومن بين هؤلاء الكاتب لوجي دي تاسي

- لقد كانت هناك عوامل كثيرة وراء تشويه صورة البحارة الجزائريين، منها ما تعلق بالجو العام في أوروبا والجزائر والذي شهد صراعا بين الإسلام والمسيحية، ودعوات الكنيسة المستمرة للقضاء على الخلافة العثمانية والعالم الإسلامي عامة، ورغبة الدول المسيحية في القضاء على الجزائر وجعلها مستعمرة لهم، هذا بالإضافة إلى عوامل شخصية كرغبة أصحاب هذه المصادر في جمع أموال الفدية لتخليص الأسرى، أو البحث عن الشهرة والمجد، والانتقام ممن أسرهم بتشويه صورته وغيرها من نوازع النفس البشرية.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر العربية والمعوية:

- كاثكارث جيمس، مذكرات أسير الداوي كاثكارث فنصل أمريكا في الجزائر، ترجمة وتقديم وتعليق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982.

- شالو وليام، مذكرات وليام شالر فنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824، تعريب وتعليق وتقديم اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1982.

- ستيفن جيمس ويلسن، الأسرى الأمريكان في الجزائر 1785-1796، ترجمة على تابلت، منشورات تالة، الجزائر، 2007.

- خوجة حمدان بن عثمان، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق محمد العربي الزبيري، سلسلة التراث منشورات ANEP، الجزائر، 2005.

المراجع العربية

- ب. وولف جون، الجزائر وأوروبا 1500-1830، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الرائد-عالم المعرفة، الجزائر، 2009

- بروديل فرنان، المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب وإيجاز مروان أبي سمرا، دل المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، ط.1، بيروت، 1993.

- شوفالييه كورين، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007.

- عميراي احמידة، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني مذكرات تيدنا أنموذجا، شركة دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003.

- المدني أحمد توفيق، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791 سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والسيادة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

الدوريات:

- بلحميسي مولاي، "موقف الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني"، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ع. (5)، 1988.

- بلعمري فاتح، "حملة اللورد اكسموث على مدينة الجزائر سنة 1816 في عيون رحالة محلي وقنصل أجنبي"، مجلة معارف، جامعة آكلي محند أولحاج، البويرة، ع. (17)، ديسمبر 2014.

- بن جبور محمد، "البحرية الجزائرية في أواخر العهد العثماني"، عصور، جامعة وهران، مج. (7) ع. (2)، 2008-2009

- بن سعيدان محمد، "الأسطول البحري ودوره في أبالة الجزائر خلال القرن 11 هـ 17م"، الحوار

المتوسطي، جامعة الجيلالي اليابس، سيدي بلعباس، مج. (8) ع. (2)، ديسمبر 2017

- غطاس عائشة، "نظرة حول تقييم بعض المصادر الغربية لسياسة الجزائر الخارجية خلال العهد

العثماني"، مجلة الدراسات التاريخية، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ع. (5)، 1988

قرباش بلقاسم، "دور الكتابات الغربية في تشويه تاريخ الجزائر العثماني"، مجلة رفوف، مخبر المخطوطات الجزائرية في غرب إفريقيا، جامعة أدرار، مج.2، ع.1، ماي 2014.
الرسائل الجامعية:

- بلعمري فاتح، الحياة الحضرية في مدينة الجزائر في العهد العثماني من خلال مصادر الرحلة، أطروحة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2016-2017.
المصاو الأجنبية:

- Venture De Paradis, **ALGER AU xvii siècles**, Adolphe Jourdan, Alger, 1898.

-Haedo Fray Diego, **topographie histoire générale d'Alger**, traduit de l'espagnol par MM.le Dr. Monnereau et A. Berbrugger 1870, Alger, 1870.

-HaedoFray Diego, **histoire des rois d'Alger**, traduit et annotée par H. D. De. Grammont, Adolphe Jourdan libraire-éditeur, Alger, 1881.

-Laugier De Tassy, **histoire du royaume d'Alger**, Henri du Sauzet, Amsterdam.